حرف الراء

* * *

١٤٠- الرشيد: بن الشريف بن على الشريف دفين مراكش بن محمد بن على بن يوسف بن على الشريف دفين سجلماسة الشريف الحسنى الينبوعى السجلماسى سلطان المغرب الأقصى.

ولادته: ولد بسجلماسة عام أربعين وألف.

صفته ونشأته وحاله: حسن الخلقة، واسع الجبين، قصير القامة، غليظ الجسم، أسمر اللون، أشهل العينين واسعهما، كأنهما مرآة لقلبه الكريم، تشفان عن ذكاء مفرط، ويعلم منهما على البديهة فرحه وحزنه، شديد بياض الأسنان، كث اللحية أسودها خالطه شيب، له تأثير على القلوب يحبه كل من رآه، نشيط خفيف الحركة، لباسه لباس الأتراك، ملامح الذكاء والنباهة والشجاعة والإقدام لائحة بين عينيه.

نشأ فى حجر والده فى صون وعفاف، لم يأل والده قدس الله روحه جهدا فى تهذيبه وتدريبه وتعليمه وتأديبه بالآداب النبوية، حتى شب متين الديانة كامل الدراية والرواية، كريم الأخلاق، حسن العشرة، أبى النفس، عالى الهمة، طموحا إلى المعالى، لا يرضى بالدون ولا سفاسف الأمور، طاهر الذيل، ثابت الجأش، طويل النجاد، عارفا بسير الأمم وأحوالها وأخلاقها وسياسة الملوك ونواميسها، مشاركا فى فنون من العلوم، حازما ضابطا شجاعا مقداما لا يبالى فى الحروب بنفسه، شديد الشكيمة على من عصاه أو هتك حرمة من حرم الله، يتولى القصاص وإقامة الحدود الشرعية بنفسه من غير أن تأخذه رأفة ولا رحمة فى دين الله، جمع الله فيه من الخصال الحميدة والسجايا الكريمة ما تفرق فى غيره.

---

١٤٠ - من مصادر ترجمته: نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٤/ ١٥٦٧.

السلطان الأعظم مولاى الرشيد بن الشريف العلوى

قال فى نزهة الحـادى: كان محـبا فى جانب الـعلماء، مؤثرا لأغـراضهم، مولعا بمجالستهم، محسنا إليهم حيث ما كانوا، جوادًا سخيا، رحل الناس إليه من المشرق فما دونه وقصده بعض طلبة الجزائر فامتدحه ببيتين وهما:

فـاض بحر الفـرات فى كل قطر من ندى راحـتـيـك عـذبا فـراتا

غـرق الناس فيـه والتمس الفـقـ ـر خـلاصـا فلـم يجـده فـمـاتا

فوصله بألفين ونصف دنانير، وشـأوه فى السخاء لا يلحق، والحكايات عنه بذلك شهيـرة، وفى أيامه كثر العلم، وظهرت للعلمـاء أبهة، وأعز العلم وأهله، وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء عظيم هـ.

ووصـفـه صاحب نـشر المثـانى: بأنه مـحـيى رسـوم الدين، وقـاطع دابر المفسدين، مفضال أهل البيـت النبوى، ومظهر الفخر الطاهر العلوى، ليث الإقدام وبدر الظلام، وشـمس الأنام، وظل الله للـخاص والعـام، ورحـمـة للمـسكين والضـعيـف، كان من أهل المكـارم التى لا تحصى، والـفضـائل التى لا تعـد ولا تستقصى، من سـاداتنا شرفاء سجلماسة البلدة الغـرا، وحق لها أن تنال بآل البيت علوا وفخرا، حاضرة ملوك المغرب المدعوة بتافلالت القادمين عليها من الحجاز كما تقدم مبينا.

قال سيدنا الجـد رحمه الله فى كتابه الدر السنى ما نـصه: وهم من صرحاء الأشراف نسبا، وفضلائهم حسبا، وكبرائهم أقدارا، وعظمائهم اشتهارا، طلعوا فى سمـاء المجادة بدورا، وبرزوا فى مـحافل السـيادة صـدورا، وتساموا فـى المشارق والمغارب ظهـورا، وحملوا من المهـابة والجلالة لواء منـشورا، لهم فى علو الهـمة ونفوذ العزيمة منصب لا يضاهى ومرقب لا يباهى، آبية نفوسهم، طيبة غروسهم، عزيز جارهم، مـحمى زمارهم، كريمـة سجاياهم، عظيمة مـزاياهم، تلقاهم فى

المكاره ليوثا، وفى المكارم غيوثا، أحرزوا من الفطر العلية قديمها، ومن السير العلوية فخيمها، وبرعوا أقرانهم من الأشراف، تجمع شعبتهم المباركة ثلاثة أصناف، فكان فيهم الأكابر من الأعلام، والكثير من الصلحاء الكرام، ومنهم ملوك وقتنا وسلاطينه العظام، خلد الله فى الخيرات مآثرهم، وأيد بالتوفيق أوامرهم.

ثم قال: نهض للخلافة السلطان الأعظم والملك الأفخم، ركن الفخار المشيد، أبو المكارم مولانا الرشيد، طيب الله ثراه، وعمه بعفوه ورحماه، فظهر أولا ببلاد آنكاد ثم استولى على مدينة تازا وما والاها ثم على فاس فدخل دار الملك بمدينتها البيضاء ليلة يوم الاثنين الثالث من ذى الحجة متم سنة ست وسبعين وألف واستوطنها، ثم ملك المغرب بأسره قطرًا بعد قطر إلى وادى نون من السوس الأقصى، وإلى قرب الأغواط من ناحية الجريد فكان مجددا للملك بالمغرب[1] انتهى.

ثم قال فى النشر: ولما مر صاحب الترجمة بالموضع المسمى بالشط من الظهراء، أمر بحفر آبار شتى وهى تدعى إلى الآن بآبار السلطان، فهى مضافة إليه، فيسقى منها ركب الحجيج فى مروره وإيابه، فهى من آثاره، تقبل الله منه، وكان على يده هذا الفتح العظيم، لضعفة المسلمين بل لجميعهم، فى هذه المدة اليسيرة، لما جبل عليه من حسن السيرة، إذ كان من السراة الغطارف، ومن الأعجوبات فى الإقدام بين المراهف، أحيا الله به رسوم الدين بعد دروسها، وأنعم المساكين بعد شدة بؤسها، خاض أمواج الأهوال حتى أهمدها، وقام فى نار الفتن حتى أخمدها، فيالها من نهضة لله ما أحمدها، تدارك الله به المغرب بما فيه من قوى وضعيف، وأغنى به الوضيع والشريف، ولا زال بسيرته المباركة كريما

(١) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٦٧.

فاضلا، زكى الأخلاق كاملا، يتنازل على مقامه الرفيع، فيجبر خاطر المتخفض والوضيع، ومن شيمه الجليلة، ومنحه الجزيلة، مجالسة العلماء وإكرامهم، ومباسطتهم بين الملإ وإعظامهم، ومع تحمل النهوض بأمر الخلافة حتى ألقت إليه زمامها فى مدة قليلة، أبدى مآثر فى مصالح المسلمين جليلة، كبناء المدرسة التى بحومة الشراطين من فاس، وأتى على بنائها من الأساس، فبالغ فى إتقانها صنعا، وبذل المجهود فى إحسانها وضعا، وتجديد ما اندرس من القنطرة البديعة المعتبرة التى لا يعرف بالمغرب مثلها، وقلما اتفق فى معمور الأرض شكلها، وهو أربعة أقواس منها، وهى على نهر سبو على نحو فرسخ من فاس[1].

قال: ولما أكمل قنطرة سبو بالبناء، نقشت فيها أبيات من نظم العلامة القاضى أبى عبد الله المجاصى ومنها:

صاغ الخليفة ذا المجاز ملك الحقيقة لا المجاز

فوقع الاعتراض عليه بأن ملك الحقيقة هو الله تعالى لا غيره، وأجيب بأجوبة منها أن الحقيقة تنقسم إلى عقلية وشرعية ولغوية وعرفية، والملك بمعنى العقلية لا يكون إلا لله وفى غيره مستحيل، فيحمل على إحدى الحقائق الباقية، والأقرب منه حمله على الحقيقة العرفية بمعنى أنه لا يقال فى العرف ملك حقيقة إلا له، أما باعتبار الحاضرين فى زمنه فلا إشكال، وأما باعتبار من مضى فهى على طريق المبالغة، وذلك سائغ فى باب المدح، والله الموفق[2] هـ.

والاعتراض المذكور هو للشيخ اليوسى فى المحاضرات، قال فيه: ومن البشيع الواقع فى زماننا فى الأوصاف أنه لما بنى السلطان المولى الرشيد بن الشريف جسر نهر سبو وصنع بعضهم أبياتا كتبت فيه برسم الإعلام أولها فذكر البيت

(١) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٦٧ - ١٥٦٨.

(٢) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٦٨.

المذكور وقال أثره: فحمله اقتناص هذه السجعة والتغالى فى المدح والاهتبال بالاسترضاء على أن جعل ممدوحه ملكا حقيقة لا مجازا، وإنما ذلك هو الله وحده وكل ملك دونه مجاز، الممدوح وغيره هـ.

وهو فى باب التحذير حسن، كما أن الجواب المتقدم فى باب الاعتذار، وخصوصا عمن ثبت علمه وتحقيقه من الأبرار لا بأس به.

قال فى النشر: ومن مزايا المترجم العظيمة، وعطاياه الفخيمة، وفطره السليمة، أنه كان حيث ما دخل بلدا تعاهد مساجدها ومدارسها وسأل عن مجالس إقراء العلماء بها، وعمن يحضرها، وربما حضر مجلسا لبعض الكبراء، فرأينا فى بعض التقاييد أنه حضر مجلس الشيخ اليوسى، وكان يدخل للمساجد بنفسه، ودخل مرة فاسا على حين غفلة من أهله فدخل القرويين وتلك كانت عادته فى دخولها، ثم دخل للمدرسة المصباحية، فتعرض له الإمام سيدى الحسن اليوسى مع فقيه آخر فأعطى لكل منهما مائة مثقال، وما اجتمع مع علماء وقته إلا وحض فى مجلس اجتماعه معهم على نشر العلم وبثه وإتقانه وتحقيقه وتعظيم طلبته، وقد صادف ذلك كل مرام، وأحيا الله به نعم المغرب بعد الانعدام. لطلوع شموسه، على ين تغير من وجه الدهر وعبوسه. فجاء المغرب على فترة من هلكه، فأقبل على التعلم والتعليم، وعمرت أسواق العلم وقد عفت منذ قديم[1].

قال: ولما قبض الله تعالى والده إليه، خرج من تافلالت فى ثالث عشر رمضان عام تسعة وستين وألف.

قال: وفى ثامن عشرين من شوال وصل إلى تدغة، ثم إلى دمنات، ثم الزاوية البكرية ثم إلى آزرو ثم إلى دار ابن مشعل هكذا وجدت مقيدا عن الحافظ الفاسى.

---

(١) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/١٥٦٨.

وسيأتى أن وصوله إلى دار ابن مشعل كان عام خمسة وسبعين، وموت أخيه مولاى محـمد، واستيلاءه على فاس الجـديد والقديم كان فى عام ستة وسـبعين، وفى عام سبعة وسبعين أخذ الزاوية البكرية، وفى عام ثمانين أخذ فى حفر أساس قنطرة سبو، وفى العـام الذى بعده استولى على تارودانت وسائر البـلاد السوسية، وفى العام الذى بعـده وهو اثنان وثمانون توفى فحاصل أمـره من موت والده عام تسعة وستين إلى موته عام اثنين وثمانين.

وحدثنى بعض الفقهاء الثقـات عن والده، وأعرفه من الثقات وقد أدرك هذا الزمن، أن مولاى رشيد لما نزل بالزاوية أن لا يقيم بها وأن يسرع بالخروج، وأخبره أن مما هو شـائع عندهم أن مولاى الرشـيد هو الذى يخلى زاويتـهم تلك، وأنهم استفادوا ذلك من بعض الأخباريين عن كشف أو غيره، مخافة أن يهجم عليه أحد من رؤسائهم بسبب ذلك.

وقـد كانت لأهل الـدلاء زيادة محـبـة فى آل البيت عن غـيـرهم من أهل وقتهم، فخـرج مولاى رشيد من الزاوية فصادف قافلة خـارجة منها فطلبوا منه أن يحمـيهم إلى مـحلهم الذى يريدونه لأن الوقت وقت نهب ففـعل، فتـعرض لهم خلال الطريق بعض أهل البوادى يريدون نهبهم فـأخبرهم مولاى الرشيد بأنهم فى حمايته ليحترموهم بحرمتـه إذ تلك كانت عادة أسلافه فى حماية القوافل وغيرها، فلم يعبئوا به فتجرد لقتالهم مع مملوكين له اثنين فقط من رقيق السودان، وبيد كل واحد منهما مكحلة فأخذ المكحلة من يد أحدهما وحمل بفرسه على القوم فأصاب واحدا منهم برصاصة ورد المكحلة للمـملوك، وأخذ المكحلة الأخرى من يد الآخر فحمل كـذلك فأصاب رجلا آخـر وما رد المكحلة حتى وجد المملوك الآخـر عمر المكحلة الأخرى فأصـاب منهم آخر أيضا، وبقى كلما حمل عليـهم أصاب واحدا منهم مع حفظ الله إياه منهم.

فما أمكن القوم إلا الفرار منه مع كثرتهم، فكان مقدمة لما قدر فى سابق العلم من تولى إمارة المغرب فما رجع عنهم حتى أعطوه ثلاثة عشر فرسا التى أصاب فوارسها برميه، فحمل على كل فرس رجلا ممن اختار لمتابعته، ورجع فى الحين واستقبل فاسا العليا ونزل أمامها فرآه رئيسها الدريدى من بعض بروج سورها، فسأل من هو؟ فأخبر به، فأرسل له فى الحين دراهم نحو خمسة مثاقيل مع وسق من الشعير، وقال لرسوله إليه قل له: هذه عشاؤه يعنى الدراهم، وهذا علف دوابه يعنى الشعير، فليرتحل ولا يقيم عندنا قسطا.

فرحل مسرعا فوفد على رئيس يدعى الشيخ اللواتى، وكان يتفقر ويعظم نسبة الشرف فبالغ فى إكرامه، فبينما هو مقيم عنده إذ رأى رجلا بهيئة من خيل وأتباع ومماليك وهو يصطاد كهيئة الملوك، فسأل من هو؟ فقيل له: ابن مشعل من يهود تازا، فتنحى سريعا وجعل السكين فى فمه واستقبل الشيخ اللواتى، فلما رآه بادر إليه قائلا لبيك يا سيدى لبيك لا أعز عنك رقبة ولا مالا لأن ذلك عندهم علامة على تأكيد الاستعطاف فى أخذ الثأر إن ظلم أو شبه ذلك.

فاقترح عليه أن يهيئ له خمسمائة أو نحوها من إخوانه الأبطال ليفتك باليهودى غيرة منه جزاه الله خيرا على دين الله، فقال له: لا تخلف عنك واحد منهم أينما توجهت، فتواعد معهم أن يمروا خفية متفرقين ويلحقوا به دار اليهودى ابن مشعل، وهى على نحو نصف مرحلة من تازا شرقا فى البيداء أو أزيد من ذلك، ثم تقدمهم إليها واستضاف اليهودى فأضافه وتبعه الأبطال فأحاطوا بالدار بعد أن أظلم الليل بحيث لم يشعر بهم أحد، وبحيث يتصل بهم إن احتاجهم واحتال حتى اتصل باليهودى فى خلوته فبطش به وقتله وأدخل الرجال باحتيال صادف به مرامه.

فاستولى على دار اليهودى وأخذ منها أموالا كثيرة وذخائر نفيسة فنال ما قدر الله له من موعده، وسطعت فى فلك السعادة منازل سعوده، انتهى.

زاد غيره أن ابن مـشعل هذا كانت له صولة على المسلمين واسـتهزاء بالدين وأهله، قلت: بذلك يكون ناقضا لعهد الذمة، ليس لماله ولا لدمه حرمة.

وتذكر هنا قضـية كعب بن الأشرف اليهودى وتوجـيه النبى ﷺ من فتك به ليلا على نحو الصفـة التى فعلها المترجم هنا، وهى فى صحيح البـخارى وغيره، قال فى النشر: ولاحت للمغرب السعـادة والبشائر، وانتعش به بعد الإشراف على الموت كل حـيوان من ناطـق وصاهل وطائر، وكل خـيـر من ربنا الملك الوهاب، ولكل أجل كتاب.

وذكر لى بعـضهم مما هو شائع عند بنى يزناسن بالزاى أن اليـهودى المذكور كان بدار له متحصنا بجبالهم وهم محـزبون عليه، فما زال المولى الرشيد يلاطفهم فى أمره حتى فـهم اليهودى أنهم قد أسلمـوه، فنزل إليه بهدية فقبـض عليه وقتله ودخل داره واستخـرج ما فيهـا من الأموال، فالله أعلم أى ذلك كـان وكيف كان هـ.

هذا وقد وقع فى أصول التاريخ للكنت دو كاسترى المؤرخ الفرنسى نقلا عن أسير الدولتين الرشيدية والإسماعـيلية أن خروج المترجم من تافلالت كان فى رفقة قواد ثلاثة، أحدهم أسود اللون والآخران عربيان وأنهم قصدوا وادى درعة مع من كان معهم من الجنود بقصد شن الغارات.

وأن أخاه المولى محمد لما عـلم بذلك أرسل بعض الفرسان فى طلبهم، ولما مثلوا بين يـديه أوقع القبض على صاحب التـرجمـة وأودعه السجن، وأقـام الحد الشرعى على بقية أتباعـه بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم بعد أيام قلائل فر المترجم من السـجن وجمع عليه جنودًا صـار بها ذا قوة وبأس شـديد، ثم ظفر به أخوه المذكـور ثانية رغم جنوده المجندة وأودعه السـجن وشد فى حراسـته، وبقى بالسجن مدة طويلة إلى أن استعان ببعض مواليه فى فتح نقب بجدار السجن انفلت منه، وأنه بعـد انفلاته قـتل ذلك المعين، لأنه صـار لا يأمن خيـانته بعـد أن خان

الملك، ثم قصد الزاوية الدلائية وبقى مختفيا بها إلى أن أوجس فى نفسه خيفة من أهلها، ففر إلى قبيلة كبـدانة على الضفة اليسرى من وادى ملوية، واتصل بقائدها على بن سليمان، وبقى فى خدمته إلى أن سنحت له الفرصة بأخذ قلعة ابن مشعل ونهبها، ثم بعد ذلك جمع الناس وألقى عليهم خطبة قال فيها:

أيها الناس، إننى أحكم بينكم بالعدل، وأقابلكم بالحلم الذى عرف به البيت الفلالى إذ أنا ابن مـولاى الشريف وأخ مـولاى محمـد ملك تافلالت الآن، ومن العسـير أن تجدوا أمـيرًا أعرق منى فى النسب الشـريف، وقد رأيتم من أفعـالى ما يدلكم على كرامة أصلى، وأننى سأكون ساعـيا على الدوام فى مرضاتكم وسترون إن يسر الله لى فى الملك فوق ما صـرحت لكم به مما تكونون به سعداء مطمئنين، ولا يصدنكم عن مبايعتى ما لكم من الاحترام نحو أميركم فإنه ليس أهلا للولاية، لكونه لا يحب دولته ولا يهتم بأمورها.

وما ترقى الملك والأمراء إلا بالنظر فى مصالح بلادهم والقيام بشئونها، ومن الواجب عليهم الزهد فى مـصالحهم الشخـصية وشغل أوقاتهم بالنـظر فى مصالح أوطانهم، فإن عكفوا على اللهو والتمتع باللذات تعين خلعهم، وإنى أطلب منكم أن تبايعونى على ذلك، فإن وفيت فذاك، وإلا فلكم إنزالى عن العرش، ولا شك أن أهل كبدانة وغيرهم من القبائل يوافقونكم على فعلكم ويستحسنونه.

ثم بعد ذلك تمت له البـيعة، فلمـا سمع بها على بن سليـمان اغتـاظ غيظا شديدا فحشد جنودا مجندة، وزحف بها لمحـاربة الرشيد، ولكن كان أمره خسرًا، إذ صارت تلك الجنود المجندة تدخل فى طاعة الرشيد ولم يقف بها الأمر عند ذلك الحد، بل ألقت القبض على أميرها وسلمته للرشيد فسلبه مما كان بيده من الأموال وأمر بقـتله، وأنفق بعض ذلك المال فى الجند قائلا هذا جزاء تعـبكم وتفانيكم فى خدمتنا.

ولما سمع بذلك مولاى محمد نهض للايقاع به قبل استفحال أمره، فأخرج الرشيد لقواده القيود والأغلال التى كانت عليه لما كان فى سجن أخيه، وقال لهم: هذه الأغلال التى كانت على بسجن أخى فهل لكم أن تنتقموا لى منه، فأجابوه بالموت دون نصرته، ولو أتى السيف على آخرهم.

فوصلهم بأموال طائلة، ولما التقى الجمعان كان النصر للرشيد فهزم ثانية، واقتفى أثره الرشيد لتافلالت وحاصره إلى أن مات.

ثم بعد ذلك بمدة أتاه يعنى الرشيد وفد من مكناس لتقديم طاعتهم له، فولى عليهم أخاه مولانا إسماعيل هـ الغرض فليحرر.

والأمير المذكور فى كلامه ليس هو مولاى محمد بدليل أول الكلام، وإنما المراد به على بن سليمان المذكور، ثم لا يصح أن يكون هذا الأسير المنقول عنه شاهدا ما حكاه، لأنه إنما أسر فى الدولة الرشيدية، وهو هنا يحكى ما كان قبل زمن أسره، فبالضرورة أن حديثه هذا إنما رواه عن غيره، ولعل ذلك الغير غير ثقة إن لم نقل الراوى لم يتثبت أو تعمد الزيادة والنقصان، خصوصا وكلام مؤرخى الإسلام لا يساعده فى كثير من فصوله، فلهذا أشرت إلى أنه فى عهدته بقولى فليحرر.

وانظر قوله وحاصره إلى أن مات، فإنه ظاهر فى أن الحصار والموت كانا بتافلالت، والواقع يفنده.

قال فى نشر المثانى[1] فى حوادث عام ١٠٧٥: حرك مولاى محمد لأخيه مولاى رشيد فهزم مولاى محمد وقتل يوم الجمعة الثامن من المحرم، ودفن بدار ابن مشعل على نصف مرحلة من تازا، أو أكثر شرقا، وأنه لما قتل ابن مشعل

(١) موسوعة أعلام المغرب ٤/١٥٢٨.

وحصل من عنده على مال كثير جدا قصده أخوه مولاى محمد لانتزاعه منه لئلا يستقل بالملك فلم يقدر له على شيء هـ.

قال فى الدر المنتخب المستحسن بعد أن حكى القول بمدفن مولاى محمد المذكور بدار ابن مشعل ونسبه لغير واحد، والذى رأيته فى بعض تآليف بعض الشرفاء أنه دفن بسجلماسة قرب والده، وقد يجمع بينهما بأنه دفن حيث ذكر ثم نقل لسجلماسة هـ.

قال فى النشر: وفى يوم السبت حادى عشر رمضان انتهض رؤساء فاس لأمر أهلها بشراء الخيل والمكاحل واجتمع أهل فاس، والحياينة، وصفرو، والبهاليل، وغيرهم خارج باب الفتوح للميز وتأكيد عدم الدخول فى طاعة مولاى رشيد فأغضى عنهم مولاى رشيد وحاصر أهل تافيلالت تسعة أشهر ثم نزل بتازا فخرج أهل فاس من الحياينة إلى الغارة عليه فى خامس عشر شوال، فرجعوا فارين فتبعهم إلى قنطرة سبو ورجع، فبعثوا إليه بصلح فلم يكمل بينهم وبينه حتى أكمل الله مراده وبلغه أمر المغرب فأنقذه به من أهل العناد، وأحيا الله به البلاد والعباد[1].

وكانت أيامه مباركة على كثير من المسلمين اتفق له فيها ما لم يتفق لغيره فى كثير من المسلمين.

قال ومن حوادث عام ستة وسبعين وألف: أن مولاى رشيد نزل على فاس فقاتل ثلاثة أيام، وجرح برصاصة فى أذنه، فرجع سالمًا، ثم عاد مرة أخرى فى ثالث ربيع الأول فأوقع فيهم القتل والجرح ما يقرب من سبعين رقبة، ورجع لأنه لم يكن أتى مستعدا لهم، ثم سار إلى الريف فحاصر أعراس[2] وأخذه فى رمضان بعد منازلات، وفى ضحوة الثلاثاء ثامن وعشرين من ذى القعدة نزل أيضا

(١) الموسوعة ٤/ ١٥٢٩.

(٢) تحرف فى المطبوع إلى: «أعراض» وصوابه من نشر المثانى الذى ينقل عنه المصنف..

على فاس فحاصرها إلى الخميس، وبقى جيشه مقاتلا إلى يوم الاثنين ثالث ذى الحجة، فأصبح بفاس الجديد وقد دخل من أعلى السور ليلا من جهة الملاح، وفر رئيسهم الدريدى، ثم نزل عشيته فاسا ففر ابن الصغير رئيس اللمطيين ليلا إلى بستيون باب الجيسة، وفر أحمد بن صالح رئيس الأندلسيين صبيحة غده وطلع أهل فاس فبايعوا مولانا الرشيد ونصروه، وقبض ابن صالح قبل الزوال بحوز البلد، وقتل جماعة من أصحابه وسجن بباب دار ابن شكره[1] بفاس الجديد، وولى القضاء حمدون المزوار يوم الخميس سادس الحجة[2] هـ.

وفى شرح الزيانى على نظمه التاريخى المعنون بألفية السلوك: أن تولية حمدون القضاء كان بإشارة من الأستاذ أبى زيد عبد الرحمن بن القاضى، وذلك أن المترجم لما جلس على أريكة الملك بالعاصمة الفاسية، وجه للأستاذ المذكور يستقدمه عليه فأجاب بعدم قدرته على القدوم لكبر سنه وملازمته لبيته، فلما جاء جوابه للمترجم قال للرسول: إنى آتيه يخرج لمحل قريب من بيته آتيه فيه، فخرج لغرسة درب الدرج حائطها موال لمصمودة، ولما قدم السلطان فتحوا له فى حائط الغرسة نقبا دخل منه إليها واجتمعا معا، فقال له: جئتك لأستشيرك فيمن أوليه بفاس من حاكم وقاض ومحتسب وناظر، فقال له: أما الحاكم فلا أتقلده، والقاضى حمدون المزوار، والمحتسب عبد العزيز المركنى الفلالى، والناظر العدل مسعود الشامى.

ولما خرج من عنده أمر أن يبنى بالمحل الذى دخل منه باب وبقى طريقا، فهو درب الدرج لم يكن قبله، ولما بلغ دار الإمارة نفذ الإمارة لسيدى محمد بن أحمد الفاسى، والقضاء للمزوار، والحسبة والنظارة لمن ذكر.

(١) فى المطبوع: «دار ابن شقراء» والمثبت من المثانى.

(٢) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٣٧.

فامتنع الشامى من النظارة فسجن سبعة أشهر، ولما ضاق به الأمر أجاب على شرط أن لا يتعرض له قاض ولا وال لأن الأحباس كلها حازها اللصوص والأشراف أيام الفترة، حتى كادت أن تستأصل كلها واشتغل بالبحث عنها واستظهارها، ومن اتهم بربع أو أرض أو جنان أو دكان يحوز ما عنده من الرباع، فما ظهر رسمه رده له وما وجد مغصوبا أولا رسم عنده علم أنه مغصوب فيحوزه للحبس، حتى رد الأوقاف كلها وزاد عليها ما وجد مغصوبا من الوقف أو غيره.

ولما ولى المزوار القضاء كان كثيرا ما يرد أحكامه المفتى عبد الوهاب الفاسى فى نوازل وأحكام تقع منه مخالفة للمشهور، وعلم بذلك ابن القاضى كتب لمولاى رشيد يقول له إن من أشرت عليك بولايته له أصهار، وأصحاب تجار، ومخالط لأعيان فجار، فأقلنى من عهدته أقالك الله من عذاب النار، فكتب له أن ينظر للقضاء من هو أهل غريب الدار، لا قرابة له ولا أنصار، خامل الذكر فذكر له المجاصى الغياثى فولاه القضاء بفاس هـ.

قال فى النشر: وفى يوم الخميس الذى بعده يعنى بعد الخميس الذى ولى فيه حمدون المذكور خطة القضاء قتل ابن صالح وابن الصغير ثم ولديه، ثم خرج مولاى الرشيد بحركته للغرب فانهزم منه الرئيس الخضر غيلان ومن معه، وتبعهم فدخل القصر، وخرج إلى آصيلا، ورجع مولاى رشيد من القصر ثم عاد لحصاره[1] هـ.

وقال الأسير مويت كان خروج المولى الرشيد لقتال عبد القادر غيلان فى ثمانية آلاف فارس واثنين وثلاثين ألف رام، فتلقاه غيلان بستة وعشرين ألف جندى كلها مدربة على القتال لما كان بينهم وبين النصارى من المحاربة بالشواطى، ولما التقى الجمعان كان النصر الأخير لمولاى الرشيد وانهزمت جيوش غيلان أمام

(١) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٣٧.

الجنود الرشيدية إلى أبواب آصيلا، ومن هنالك فَرَّ غيلان إلى الجزائر ودخل فى طاعة الرشيد القصر وتطاوين وسلا وكانت إذ ذاك بلدة مستقلة هـ.

قال فى النشر: ومن المحكى أن ابن صالح والدريدى وأشياعه لما أحسوا من الناس الضجر وكثر ذكر مولاى الرشيد على الألسنة والتشوف إليه لما اشتد بهم الحال من الحصار والفتن، وكان أغلب ذلك فى شرفاء فاس أظهروا مشاحنة على سبيل المكيدة، فاختصم الدريدى مع ابن صالح وأظهروا المقاطعة بينهما، فجاء أشياعهما لكل من يعرفونه من الشرفاء والفقهاء الذين يحبون مولاى الرشيد، وطلبوا منهم أن يصلحوا بين الرئيسين، مدلين بأن هذا وظيف الشرفاء والفقهاء[1].

ومن جملة من كان فيهم العلامة حمدون المزوار، وأبو عبد الله محمد بوعنان الشريف، وآخر من أقاربه فامتنعوا أولا كراهية الدخول فى أمر الولاة، فاعتل أهل فاس بأن لا ملجأ فى مثل هذا إلا لهم، وحتموا عليهم ومن تغيب من الأشراف وغيرهم ممن عزموا عليه اتبعوه حتى حضر، ومن تمرض كلفوه المشقة، والبعض من الشرفاء، اختفى من ذلك كل الاختفاء، لكونه أخبر بالمكيدة من بعض أصدقائه، حتى جمعوا جميع من قدروا عليه ممن يظنون به الميل إلى السلطان ووجهوهم إلى الدريدى بفاس الجديد على حالة الشفعاء فى أن يصطلح مع ابن صالح، فلما أقبلوا عليه أظهر لهم الترحيب وأدخلهم مصرية وأنزل لهم مائدة من طعام ملون يعرف بطبخ الدار، وقال لهم: عشاؤكم من أسبوع بنية تزيدت لى، وخروجكم من هذه المصرية يوم خروجكم من زفافها، فعلموا أنهم مسجونون، وأنه توعدهم بطول سجنهم جدا، وأن توجيههم له من أصله إنما هو مكيدة واحتيال، وأنهم لو سجنهم جهارا لما أمنوا من انتصار بعض العامة لهم أو شبه ذلك، فلما وقع جميعهم فى ذلك أسفوا وبقى الطعام بينهم لم يتناول أحد

(١) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٣٧ - ١٥٣٨.

منهم شيئـا، فقدر الله تعالى ظهـور مولاى الرشيد ودخوله فـاسا الجديد فى تلك الليلة، فالمائدة ما زالت بموضعـها وطعامها وهم يسمعون الإعـلان والصياح بنصر مولاى الرشيد فى كل الجهات ففرج الله عنهم.

ربما تجزع النفوس لأمر وله فرجة كحل العقال[1]

فمنهم من لم يخرج إلا بعد أن أكل من تلك المائدة زيادة فى الفرح، ومنهم من حمل معه من ذلك الطعام وخرج مسرعا، ومنهم من بقى ثمة حتى دخل عليه السلطان مولاى الرشيد ومنهم البوعنانيون المذكورون فسر بهم وبقى يرعاهم[2].

وهذا من أسباب توليـة أحفادهم القضاء من قبل مولانا إسـماعيل، لما يعلم فيهم من تقـرر محبة الإمـارة، وكأنه بحث عن أحوالهم، وممن كان حـاضرا بهذه القضية سـيدى محمد بن أحمد الشـريف العراقى الحسنى[3] سمعت هذه الحكاية من بعض أحفاده لبنته وهى شائعة عـنه وعن غيره، ويذكرونها بزيادات لم أذكرها لأنى هذا الذى حققت منها، ولله الأمر من قبل ومن بعد[4].

قال: ومن حوادث سنة سـبع وسبعين وألف رجوع السلطان مـولاى الرشيد من الحركة أوائل ربيع الثانى، فكتبت له البيعة من فاس وقرئت بين يديه زوال يوم السبت الثامن عـشر ربيع الأول، ثم خرج إلى مكناسة فى ربيع الثـانى بقصد آيت ولاَّل من البربر فـأخذهم، ورجع ثم نزل الرئيس محـمد الحاج قـرب وادى فاس بأبى مزُّورة[5]، فقاتل قتالا خفيفا ورجع نحو ثلاثة أيام، ثم خرج السلطان مولاى

(١) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٣٨.
(٢) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٣٨.
(٣) فى نشر المثانى: «الحسينى».
(٤) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٣٨.
(٥) فى المطبـوع: «بأبى مـرورة» والمـثبـت من المثـانى الذى ينقل عنه المـصنف. ومـثله فى الاستقصا ٧/ ٣٦.

الرشيد لتازا حادى عشر رجب، ورجع فى شوال ففزع الرئيس العكين عن مكناسة، ثم خرج السلطان لبنى زروال ثانى يوم النحر فأخذهم وبعث رئيسهم الشريف إلى فاس ثانى محرم عام ثمانية وسبعين، ثم نزل على تطاوين فأخذ رئيسها فى صفر وأتى به فسجنه مع جماعته ورجع أوائل ربيع الأول(١).

قال: ومن حوادث ثمان وسبعين خرج مولاى رشيد لحركة الزاوية الدلائية ضحوة الخميس الثانى عشر من ذى الحجة، وولى بفاس العلامة سيدى محمد بن أحمد الفاسى زوال يوم السبت من ربيع الثانى(٢).

قال: ومن حوادث سنة تسع وسبعين أخذ الزاوية الدلائية، قال الشيخ أبو على اليوسى فى محاضراته: كان الرئيس أبو عبد الله الحاج بن محمد بن أبى بكر قد ملك المغرب سنين عديدة، واتسع هو وأولاده وإخوته وبنو عمه فى الدنيا، فلما قام الشريف السلطان رشيد بن الشريف ولقى جيوشهم ببطن الرمان فهزمهم، وذلك أوائل المحرم فاتح سنة ست وتسعين وألف، فدخلنا عليه، وكان لم يحضر فى المعركة من عجزه لكبر سنه فإذا بالفلّ يدخلون فدخل عليه أولاده وإخوته وأظهروا جزعا شديدا وضيقا عظيما فلما رأى منهم ذلك، قال لهم: ما هذا! إن قال لكم حسبكم فحسبكم، يريد الله تعالى. وهذا كلام عجيب وإليه يساق الحديث، والمعنى: إن قال لكم تعالى حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين(٣) هـ.

قال: والإشارة بهذا إلى أن الله تعالى وضع لعباده فى الدنيا مائدة وجعلها بينهم دولاً، كما قال تعالى: ﴿ ... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴿١٤٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٤٠] فكل من جلس على هذه المائدة وتناول منها ما قسم له فلابد

(١) نشر المثانى ٤/ ١٥٤٦ فى موسوعة أعلام المغرب.

(٢) نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٤/ ١٥٥٢.

(٣) نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٤/ ١٥٥٧.

أن يقوم عنهـا بالموت أو بالعزل ليجـلس غيره، ولا تدوم لأحـد ولا ينام عنها من أقيم غـالبا إلا بمرارة وعنف، ولذا قال ﷺ فى الـولاية: نعمت المرضعـة وبئست الفاطمة.

ثم من الناس من لم يشعر بهـذا المعنى ولم ينتبه له، فهو يسعى إليهـا عجبا بأوائل زخرفها وانخداعا بظهور زينتها، ومن الناس من علم ذلك وتنبه له، ثم من هؤلاء من نفعه الله بعلمه فـأوجب له أفعالا محمودة إما قبل ولوجـها بالزهد فيها والفرار منها علما بغايتها دينا وتقوى، أو حزما فى الدنيا بعد الولوج فيها بالتعفف والإحسان والعدل والرفق ومجانبة الجـور والبغى والخرق، إما دينا أيضا وحذرا من المطالبة فى الآخرة، وإمـا خرقا دنيويا وحـذرا من اختلالها واضمـحلالها، إلى أن قال: وقال أبو عمر بن عبد البر: تكلم معاوية رضى الله عنه يوما، فقال: أبو بكر هرب منها وهربت منه، وأما عمـر فأقبلت إليه وهرب منها، وأما عثـمان فأصاب منها وأصابت منه، وأما أنا فـداستنى ودستها، قال أبو عمـر: وأما على فأصابت منه ولم يصب منها.

ثم قال فى المحـاضرات بعـد كلام طويل: وكل من تعرض لهـا من السلف فإما انتـهاضا لنصح المسلمين من نفسـه بإقامة الحق لئلا يضيع، وإمـا نزغة بشرية حركها لسبب من الأسباب، أمـا على هذا الثانى فلا يقتدى بهم، وأما على الأول فيقتدى به من بلغ مقامـه فى التمكين القوة والنزاهة، وفى مثل زمنه الصالح الذى لم يزل به الدين طريا، والحق جليـا، والأعوان عليه قـائمون، وهيـهات ذلك فى آخر الزمـان الذى غلب فيه حب الدنيـا واستولى على الناس سلطان الهـوى، فلا ترى إلا حريصـا على الجمع والمنع، ولا ترى إلا نفاقًا ومـداهنة، فالمرء الكيس لا يعدل لنفسه بالسلامة شيئا، ومن له بوجودها إن لم يكن له من المولى لطف ظاهر هـ المراد من كلام الشيخ اليوسى باختصار.

فكان أخذ الزاوية يوم الاثنين ثامن المحرم، ومن لطف الله على أهل الزاوية فيما سبق لهم فى علمه ببركة جدهم محبتهم فى أهل البيت أن جعل خلاء زاويتهم على يد مولاى الرشيد الذى حلم عليهم الحلم المعهود لأمثاله من صرحاء أهل البيت، فما أسال من دمائهم ولو قطرة، ولا كشف لهم عن عورة، وربما مد بعض الظلمة يده فانتقم منه أشد الانتقام.

ولا يقال إن تخريب المترجم لهذه الزاوية وإجلاء أهلها منها وترحيل رؤسائهم لتلمسان وتغريبهم هناك بدليل العيان غير مناسب لما كان فيهم من علم ودين، وزائد ود، لأبناء السبطين، لأنه يقال إن ذلك ضرورى عادى فى جمع الكلمة، إذ ما دام من كان بيده فى مأوى سلطانه إلا ومواد الثورة لا تنحسم وعين التشوف لا تنسد، ولو من رعاع الاتباع والمشاهدة أعظم برهان، ولأمر ما قال تعالى عن بلقيس: ﴿ ... **إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً** ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة النمل ٣٤].

فحيث كان هذا المقتضى الأكيد فى سياسة الأمة وجمع كلمتها وانضمام شمل ألفتها على من يحمى بيضتها قائما، فالعلم ومعطوفاته التى توجد حشو من يراد إقامته فى ذلك على المحجة البيضاء لا تعد موانع، من تنفيذ ذلك المقتضى، لأن درء المفسدة أهم، ولإمكان الجمع بظهور نتائج العلم ومعطوفاته من صاحبها فى أماكن أخرى لا تتطرق فيها مفسدة، وكذلك كان فإن جميع من كان من تلك العائلة له علم ودين قد استقر بحاضرة المغرب فاس، ونصبوا بها وبأحوازها للمناصب اللائقة بعلمهم ودينهم، كما حفظ ذلك كله التاريخ، وفى كتاب البدور الضاوية من ذلك ما فيه مقنع فحصلت لهم بذلك الكرامة، مع الأمن والسلامة، ولله فى خلقه شئون.

قال أبو على اليوسى: وكان محمد الحاج فى ابتداء أمره طالبا فقيرا صعلوكا قليل ذات اليد، ووالده مثله فكلف والده أن يشترى له فرسا فقال له: والله ما عندى ما أشترى لك به حمارا، اشتغل بقراءتك مع بنى عمك واترك مرافقة البطالين، وأقبل على ما ينفعك فلم ينفع فيه وعظ فهجره والده وأعرض عنه وتركه وشأنه، فكان يأوى إلى كهف فى جبل فوق قريتهم بالدلاء مع أحداث مثله.

فاتفق ليلة لم يأت أحد منهم غيره فأتى بقبس نار وحطب وأوقد نارا بالكهف فرأى فى زاوية محلا كالباب مبنيا بحجارة فتأمله فإذا هو بناء، فتوجه للقرية وأتى بآلة حديد قلع بها البناء ودخل من ذلك النقب بقبس نار فوجد محلا منقورا فى الجبل وبه سبعة قماقم من نحاس مختوم على أبوابها بالرصاص، فدحرج واحدا منها إلى الكهف لثقله وكسر ختمه فوجده مملوءا بالدنانير المرينية، فأخرج القماقم كلها إلى خارج الكهف وحفر لها فى الأرض ورد عليها التراب وسواه.

ورجع إلى الكهف فأغلق الباب كما كان بالحجر والطين ونكسه ونقص من القمقوم الذى فتح مقدار ما يحمل وتوجه به لدار والده، فوضعه بمحله، ورجع إلى القمقوم فحمله وأبلغه لمحله، ولما أصبح استرضى والده ببعض ذلك وجلب خاطره به ووصل أقاربه وبنى عمه واشترى لرفقائه وله خيلا وسلاحا واشتهر بينهم بأنه يحسن صنعة الكيمياء، وأقبل عليه البطالون.

فلم تكمل السنة إلى أن كان يركب فى مائة من الخيل، فجاءه أحداث قبيلة مجاط فاجتمعوا عليه وكان يستركبهم، وعظم أمره وصار يشن الغارة على أهل تادلا، وعلى أهل ملوية وأمر أمره فدعا لنفسه هـ بنقل صاحب الروضة السليمانية.

وفى البدور: وكـان أهل صاحب الترجمـة - يعنى الرئيس محمـد الحاج - كـارهين لولايتـه لما كانوا عليـه من الاشـتغـال بالعلم والدين والـسيـر على سنن المهتـدين، ولما سمـعوه من الشيخ والـدهم رضى الله عنه فإنه كـان يقول له أنت سبب خراب هذه الزاوية، وكان يقـول سيجعل لكم محمـد سلما تصعدون به إلى درجة ثم ينكسر السلم وتنهدم الدرجة، وفى ذلك يقـول أخوه الشيخ الإمام سيدى محمد الشاذلى رحمه الله:

بلـينـا بذى نـسب شـــــائـك قليـل الجـدا فى زمـــان الدعـــه

إذا نالـه الخـيـــــر لم نرجـــه وإن ضـعـفـوه ضـعـــفنا مـعـه

وفى البدور أيضا أن أبا عبد الله محمد بن أبى بكر قال لأخت له ذات يوم: سيجـعل لكم محمد يعنى والده مـحمد الحاج سلما تـصعدون معه فـيه وتدعون اخنيف يعنى ثيـاب المسكنة، فترجـعون فلا تجـدون اخنيف وتلتمسـون السلم فلا تجدونه هـ.

قال فى نزهة الحـادى: حدثنى غـير واحد من أشـياخنا أنه أى أبا عـبد الله مـحمـد بن أبى بكر لما دنـت وفاته جـمع أولاده وذويه وقـال لهم: ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ** ... ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [سورة البـقرة ٢٤٩] وأنا أقـول ولا من اغترف بيـده يشيـر بذلك إلى ما يتجاذبـونه من الرياسة بعده ويبتلون به من أبهـة الخلافة وذلك فى مكاشـفاته وقد اعترض عليـه بعض الطلبة بقوله وأنا أقول بأنه سوء أدب بمقـابلة كلام الله بكلامه وأجاب عن ذلك حفيده شيخنا الفقيه العـلامة الشهير أبو عبد الله محمد المسناوى برسالة مستـقلة ولولا الإطالة لجلبناها بنصها هـ وهى مطبوعة فى فـتاويه المطبوعة بفاس ٢٢٢.

وفى البدور أيضا: قد نقل بعض الأثبات الثقات أن الأمير محمد الحاج لما وصل بمن معه من أهله وبنيه. وأقاربه وذويه. لمدينة تلمسان، ولم يعبأ بهم إنسان، ونزلوا منها بحرم العباد مستمطرين الفرح بالمآب، من ملك أمور العباد ورب الأرباب. قال: لا إله إلا الله الله أكبر، كنا نظن أن ندخل مدينة الجدار، دخول عز وافتخار، فدخلناها دخول ذل واحتقار، والأمر لله الواحد القهار.

قال: وبقى رحمه الله بتلمسان نحوا من عامين وأربعة أشهر، وتوفى بها عشية يوم الخميس رابع محرم الحرام فاتح عام اثنين وثمانين وألف ودفن من الغد قريبا من ضريح الشيخ محمد بن يوسف السنوسى، فكانت مدة أيامه. من وقت قيامه. وجمع شمل نظامه. بمبايعته أولا وثانيا وصيرورته إماما واليا. إلى وقت ارتحاله وخلعه وإخراجه من وطنه إحدى وثلاثين سنة، إلا أن أيامه كانت غير متمحضة للحرب ولا للسلم.

قال: وبقى من كان معه بتلمسان من بنيه. وأقاربه وذويه، إلى تمام العام فتوفى السلطان الرشيد فكان بين وفاتيهما معا أحد عشر شهرا وستة أيام، وبقى أهل الزاوية بمكانهم نحوا من عامين وأشهر.

قال: وكان خروج أهل الدلاء من العباد - يعنى منقلبهم لفاس - فى جمادى الأولى عام خمسة وثمانين وألف، فلما رجعوا كان نزولهم بقرب روضة سيدى على بن حرزهم، وبقوا به مدة ثم أمرهم السلطان مولاى إسماعيل بالدخول للمدينة الإدريسية، وأن يسكنوا منها حيث شاءوا وعظمهم وأعطاهم، وأكرم نزولهم ومثواهم وبالتوقير والاحترام أولاهم وآواهم هـ.

قال الأسير مويت: وكان ابن أبى بكر هذا عالما بنوايا الرشيد لذلك، أخذ يستعد لملاقاته فأرسل أولاده إلى الجبال بقصد حشد الجيوش ثم وزع الأموال واستخلف الأشياخ على أن يعينوه بأموالهم وأنفسهم حتى النهاية، فأقسموا له

على ذلك، إلا أن فـريقا وجـه إلى السلطان يسـتـقدمـه لزاويتـهم ظنا منهم أنهم سينالـون شيئـا من السبى فـأجابهم إلى ذلك، ومـر فى طريقه على جـبل الحديد فأخذه عنوة، ثم قصد ابن أبى بكر والتقى الفريقان ببطن الرمان غرة عام ١٠٧٩، إلا أن أولئك الأشيـاخ الذين كانوا يقبضـون الأموال من الرشيد احتـالوا فى قبض ابن أبى بكر وسلموه لعدوه فـعفا عنه، ووجهه إلى فاس ومنها إلـى تلمسان حيث قضى نحبه يوم ١٥ ماى ١٦٧١، ثم إن الملك قضى فصل الشتاء كله فى الزاوية هـ الغرض.

وما زعمه من الاحتيال فى قـبض ابن أبى بكر والإتيان به للمترجم يفنده ما فى البـدور الضـاوية نقـلا عن الأزهار الندية ونصـه: ذكـر لنا بعض الأثبـات أن السلطان الرشيد لما قدم الزاوية الدلائية بقصد الاستيـلاء عليها، لقبه الأمير أبو عبد الله محمد الحاج وكان متناهيا فى السن، فقال له: ما تريد؟ فقال له: الملك، فقال له: هو الآن فى محله فـباعه ودفع له مالا فقـبض منه المال. وألان له فى المقال. وذهب بأهله وحشمه إلى تلمسان هـ.

وقال نقلا عن تحـفة المعاصر ما نصـه: أخبرنى الشريف البركـة الخير المرابط سيدى أحـمد بن عبد القـادر القادرى الحسنى ثم الفاسى أنه كـان بها يعنى الزاوية الدلائية حين دخول السلطان الرشيد إليها حاضرًا، وكنت ممن لفظته يد الاكتئاب، ورمت به قوس المحن والاغـتراب، لما شاهـدت يومئذ من تغـير الأحوال، وكـثرة الأحزان والأهوال، إلى تادلا فلمـا وصلت الصومعة منهـا ولقيت الفقيـه الصالح سيدى عبد الرحـمن بن إسماعيل والد الفقيه العلامة الولى الصالـح سيدى محمد ابن عبد الرحـمن صاحب سيدى أحـمد بن محمـد بن محمد بن عبـد الله معن الفاسى رحـمهم الله تعـالى وسألنى عن خـبر الزاوية المذكـورة وأهلها ومـا فعل

هنالك، لم أملك عينى من البكاء بتذكـره أيام تلك الأيام والمعاهد، وما خص الله تعالى به أولئك السادات الكرام الأماجد.

قلت رضى الله تعالى عـن سيدنا حسـان، ذكرنى لفظ التذكـر والبكاء قوله يبكى أصحاب مؤتة بقوله:

يؤرقنى لـيل بيـثـرب أعـسـر ... وهم إذا مـا نوم النـاس مـسـهـر

لذكرى حـبيب هيجت لى عـبرة ... سـفوح وأسـباب الـبكاء التذكـر

بلى إن فـقـدان الحـبـيب بليـة ... وكم من كـريم يبـتلى ثم يصـبـر

هـ.

وفى نزهة الحـادى وغيـرها أن الشـريف الرشيـد غـير من الزاوية الدلائيـة المحاسن، وصـير محاسن مـعينها العـذب آسن، وصحبـها حصيـدا كأن لم تغن بالأمس، وكانـت مشرقـة إشراق الشـمس، فمـحت الحوادث ضيـاءها، وقلعت ضلالها وأفياءها، وقد أطال فانظر بقية كلامه.

وكان ممن حضر هذه الحادثة الإمام أبو على الحسن بن مسعود اليوسى ورثى هذه الزاوية بقصيدته الرائية الشهيـرة المشتملة على جودة الرثاء المقصود، والتأسف على فوات حسن الحال المعهود، والتـحنن إلى معاهد تلك الأطلال، والتشوق لمن كان بها من القطان والآل، والتنبه إلى الدهر والبائه، وتقلبه بأهله وأبنائه. والتأسى بذى التصبر لصـروفه، والتسلى بما بيديه من نكره عن معروفـه، وعدم الاهتبال بما يحدثه من الحوادث وترك الركون لنعيمه الحادث، وعدم الثقة بود بنيه، وتلون شيم أهله وذويه، ورفع الهمـة عنهم ثقة بالمولى، فيمـا لابد وأولى، والتخلى عن خلل الخزايا والكبـائر، والتحلى بحلل المزايا والمثاثر، والـترقى فى أدراج خير السـجايا لإدراك المعالى والمـفاخر، إلى غـير ذلك من الأخـلاق والأوصاف الحـسان. التى

يحصل الشـرف بها فى الدين والدنيا وينجو بسـببها فى الآخـرة الإنسان. قال فى مطلعها:

أكلف جـفن العـين أن ينثـر الدرا ... فـيأبى ويعـتاض الـعقـيق به جمـرا

وأسـأله أن يكتـم الوجـد سـاعـة ... فـيـشـقـى وإن اللوم آونة إغـرا

وقد كنت أستصحـيه حين توقدت ... جذى الوجد فاستسقيته يطفئ الجمرا

على أن دمع العيـن فضل حشـاشة ... تذاب فـمـاذا ينفـع الدمع أن يجـرا

وكـانت سـروح الهم عنى عـوازبا ... وبعد النوى أضحت مراتعها الصدرا

وكـانت عيـون الحـادثات غوافـلا ... زمـانا وخطب الـدهر كـان بنا غـرا

ليالى كـان البين عن جيـرة الحمى ... صدودا ونظم الشمل لم يستحل نثرا

وكانت رياض الحسن تـزهو نضيرة ... فكاهتـهم أضـحت بأرجـائهـا زهرا

ومـجنيـة منهـا طرائق تجـتلى ... إذا تجـتنـى فى كل مظلـمـة بدرا

وكـانت مدامـات الوصـال مدامـة ... على القوم صرفـا لا مزيجا ولا نزوا

تجاذب أخـدان الصـفاء كـئوسـها ... فلا تخـتشى منها خـمارا ولا سكرا

فـبينا ليـال الوصل بيض وروضـه ... يفيـض الندى كانت مـرابعه خـضرا

عدت عدوة أيدى الحوادث فاختلت ... خلاهـا فعادت بـعد نضـرتها غـبرا

وأبدلن مـانوس الـديار وأهلهـا ... بوحش وحـولن الأهيل بهـا قـفـرا

وبين جمـوع الحى كالراح شـبتـها ... بماء فـمـا تخـشى جـفـاء ولا نفـرا

وكـالفـرقـدين الطالعـيـن تآلفـا ... وصاحـبى الملك الذى نادم الشـعرى

أصـابتهم عـين الكمـال فغـادرت ... أكـفهم من كل مـا جمـعت صفـرا

وردتهم مثل الثريا إذا رأت سهيلا بشحط البين أو واصل والرا

فأصبح فى أرجائها البوم منشدا يردد مما قال من قد خلا شعرا:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس بلى لكن هوى جدهم عثرا

فلا جفن إلا وهو مغض على القذا ولا عين إلاّ مِنْ نجيع الشجا حمرا

ولا وجد إلا وهو مرخ سدوله ولا هم إلا وهو يكتشف الفكرا

صبرت فؤادى للخطوب فلم يزل به رشقها حتى تقضى فلا صبرا

وأزمعت نهر الدمع عنى تعزيا فلما جرى كالنهر لم أملك النهرا

ووجهت نحو الحى أعرب عن هوى ضميرى فما ألفيت زيدا ولا عمرا

وأحسب ما قد كنت أحسب دائما فخطت بنان البين فى راحتى صفرا

إلى أن قال:

هو الدهر لا يبقى على متخشع ذليل ولا ذى نخوة مزده كبرا

حسام إذا ما صمم الدهر فى امرئ غدا دمه بين الورى خضرا مضرا

ورح سموم حيث ما هب مرة تعفت معافيه وإن بعدت مرا

وسيل إذا ما يمم الأرض أصبحت أخاديد وانفلت كرادسها كسرا

وليث هصور ما تغشى حظيرة فيسطو إلا أنعم العض والعقرا

غشوم فما يرتاع من بأس خادر لحى ولا من حسن ساكنة خدرا

فليس عجيبا ما أتى من عجائب ولو أطلع الغبراء واستنزل الخضرا

إلى أن قال:

ألم تر أن الدهر حبلى أنينة ولادتها يوما وإن لم تكن تدرا

فـمن مـنح تسلى ومن مـــحن تسى نتائجـها صغرى على المرء أو كـبرى
ولا تأمـنن أبناءه أن تحـــبـــبـــوا إليك فـــمن يشـبـــه أباه فـقـــد برا
وكل بنـى دهر فـــأشـــبـــاه دهرهم على ما قضى اللـه الكريم وما أجرى

إلى أن قال:

ومن لم يكن مـــسـتـغنيـا بـقناعـة فليس بمـنفك عن الناس مـــعـتـــرا
ومن لم يكن يسترغـد العيش بالرضا بقـسـمتـه لم يبـرح الدهر مـضطرا
ومن لم يكن بالحـزم محـتزمـا فقـد فـرى حبله عن نجـحـه قبل أن يفـرا
ومن لا يبـادر صـيده وهو مـعـرض ليـــرمـيـه كـــان العناء له قـــصـرا
ومن يشـر بخـسا نوقـه وهى شـول عـــجـاف تمناها لـدا غـيـــره شكرا
ومن يحتسب يهمل كما الغيث وابلا فلا الحقل يـجفو بالعبـاد ولا الصبرا
ومن لا يثـقف مـتنه الدين والحـجـا ويرم الورى يلق المـثـقـفـة السـمـرا
ومن لا يـجنب قـــوله دنس الخـنا فلا يمـتعض يوما إذا أسمع الهـجرا
ومن يبـغ نذلا بالســبـاب وبـالنوى يكن بنضـار جـيد يشـتـرى الصفـرا
ومن يصـحب الأمجـاد تنظف ثيـابه ومن يصحب الأرذال يكسى بها العرا
ومن لا يجالس من يـجانس لم يدم له أحـد فـالأسـد مـا ترأم الحـمـرا
ومن لا يجـــاوز بالصـديق ويـلحـه يجـد لـبـه نغـلا إذا نزع القـــشـرا
ومن يرم بالـبـغض الودود مـعـنفـا ليصـفو يورث قلبـه البغض والغـمرا

وهى أطول من هذا تشتمل على مائة بيت واثنين وستـين بيتا، وقد شرحها غير واحد من فطاحل العلماء والأدباء ما بين موجز ومسهب.

وقد رثى أهل هذه الزاوية غير واحـد من جلة العلم، وقد ألم بجملة وافرة أبو الربيع سليمان الحوات فى البدور الضاوية تركنا جلب ذلك روما للاختصار.

هذا وإن المترجم قدس سره، قد نقل علمـاء هذه الزاوية المباركة لفاس لنشر العلم، ومن جملتهم الإمـام اليوسى، قال فى تحفة المعاصـر: إن الشيخ اليوسى لما أمـره الرشيـد بالرحـيل من الزاوية البكرية وألزمـه النزول بمدينة فـاس والتصـدير للتدريس بها امتثل أمره ودخل مدينة فاس، وأقـام متصدرًا للتدريس فأخذ عنه ملأ كثيـر، وجم غفير، ولزمه أهل الاعـتناء المنصفون، وانتفع به أهل المغرب انتـفاعا ظاهرا، وكان الرشـيد يحب إقامـته بفاس ويأبـى هو إلا البادية فعـاتبه فى ذلك، فـاعتـذر له بأنه رجل بدوى المولد والمنشـأ وحنينه أبدًا لأول منزل هـ بنقل البـدور لأبى الربيع سليمان بن مـحمد الحوات الحسنى المتوفى عام واحـد وثلاثين ومائتين وألف.

وفى النشر: أن الرشـيد لما فرغ من إخـلاء الزاوية فى الثانى والعـشرين من صفر قصد مراكش فأخذها وقتل رئيسها عبد الكريم المدعو كروم الحاج الشبانى مع جماعة من حزبه[1] وقرابته وبعد مـوته بشهر رجع مولاى رشيد من حـركته تلك يوم الجمعة تاسع عشرين ربيع الثانى.

وخرج صـاحب تافلالت ابن أخـيه مولاى مـحمـد بن الشريف مع أتبـاعه وخلى سبيل البلد وكذلك الخضر غيلان ذهب فى البحر إلى الجزائر، وخلى سبيل آصيـلا. وعزل القاضى المزوار، والمفـتى محمـد بن أحمد الفـاسى زوال الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الثانية، وولى محمد بن الحسن المجاصى القضاء يوم الجمعة بعد عزل المزوار المتقدم والفقيـه سيدى محمد البوعنانى خطبة القرويين بعد عزل سيدى محـمد بن أحمد الفاسى، ثم خرج مولاى الرشيـد للشاوية عصر يوم السبت سابع عشر رجب ورجع سابع رمـضان، فأمر بإخراج أهل الزاوية من فاس

(١) التقاط الدرر - ص١٧٦.

ثم سمح للبعض منهم وبقى البعض بضريح سيدى على بن حرزهم[1] إلى آخر العام ثم سمح فردهم جميعا[2].

ثم خرج لحركة آيت عياش ظهر يوم السبت سابع عشر ذى الحجة، وأحدثت السكة الرشيدية ثانى وعشرى الحجة وأقرض التجار من فاس وغيرها اثنين وخمسين قنطارًا مدة من سنة حتى ردوها وبها بنى قنطرة سبو وفى يوم السبت رابع عشر ذى القعدة أخذ فى أهبة بنائها[3].

قال: ومن حوادث عام ثمانين وألف بدء أساس قنطرة سبو، وفى خامس عشر جمادى الثانية بدأ البناء فيها بالآجر[4]، وخرج المولى الرشيد لحركة الأبيض يوم الاثنين الثانى والعشرين من رجب ورجع يوم الخميس ثامن رمضان، ومات أولاد أخ الأبيض من الغد قبضهم هنالك وقُتلوا بعد وصولهم لتازا، ثم مرض السلطان مولانا الرشيد مرضا أشرف على الهلاك، وأخرج جميع من كان بالسجن يوم السبت السابع عشر وبرئ من الغد، وفى يوم الأحد خامس عشر ذى القعدة عمل عرس مولاى إسماعيل أخى السلطان وفى شوال[5] جددت قنطرة الرصيف[6].

---

(١) فى نشر المثانى: «على بن حرازم».

(٢) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٥٧ - ١٥٥٨.

(٣) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٨ - ١٥٩.

(٤) فى المطبوع: الاجر بدون علامة فوق الألف، وفى نشر المثانى: «الأجر» بهمزة فوق الألف، وكلاهما خطأ صوابه لدى الناصرى فى الاستقصا ٧/ ٣٩. والآجُرّ: اللَّبن المُحْرَق المُعَدّ للبناء.

(٥) فى هامش المطبوع: «والذى فى البستان الظريف أن التجديد كان فى ذى القعدة من العام».

(٦) نشر المثانى فى موسوعة أعلام المغرب ٤/ ١٥٦٣، وانظر فى ذلك أيضًا: الاستقصا ٧/ ٣٩.

قال: ومن حوادث عام واحد وثمانين وألف استولى مولاى رشيد على تارودانت وهى مدينة فى أقصى سوس بها أنهار جارية وبساتين مشتبكة وفواكه مختلفة، وأسعار رخيصة، والطريق منها إلى أغمات وريكة فى أسفل جبل ليس بالأرض مثله إلا القليل فى العلو وطول المسافة واتصال العمارة وكثرة الأنهار والفواكه، وبأعلى هذا الجبل أكثر من سبعين[1] حصنا وقلعة، منها حصن منيع هو عمارة محمد بن تومرت ملك المغرب، إذا أراد أربعة من الناس أن يحفظوه من أهل الدنيا حفظوه لمنعته[2].

فوقع فتح المدينة رابع صفر واستولى على هشتوكة يوم الأحد ثامن عشر صفر وقتل منهم نحو الألف ونصف فيما قيل، واستولى على أهل الساحل ومات منهم أزيد من أربعة آلاف على ما قيل يوم الأحد خامس عشر صفر، وفى مهل ربيع الأول أخذ أهل إيليغ دار ملك سيدى على بن حسُّون، ومات منهم بسفح الجبل نحو ألفين على ما قيل، وفى سابع ربيع الأول قتل بفاس خليفة السلطان نحو ستين من أولاد جامع، وعلقوا بالبرج الجديد لأجل قطع الطريق هـ[3].

قال الأسير مويت: ولما تم الأمر للرشيد على الشبانة عام تسعة وستين وستمائة وألف [ميلادية] توجه إلى مراكش، ثم بعد ذلك وردت عليه كبراء الشبانات ببيعتهم فأمنهم، ثم جند الجنود منهم ومن غيرهم وتوجه إلى حاحة فكان لا يمر بقبيلة إلا بايعه أهلها لما يعلمونه من شدة بأسه، وكان وما معه من الجنود يبلغ ٦٣ ألفا منهم ٢٥ ألفا من الفرسان.

ولما قرب من سوس أراد أهل الجبال أن يمنعوه من المرور إلى تارودانت فحاربهم وقهرهم، ولما قرب من أكادير تلقاه أهلها وبايعوه، ثم توجه نحو إليغ

(١) فى نشر المثانى المطبوع: «من عشرين» وفى إحدى نسخه الخطية «من سبعين» كما هنا.

(٢) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٦٥.

(٣) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٦٥.

بأولاد سيدى أحمد وموسى فحاصر القصبة حتى أضر الجوع بأهلها فطلبوا من أميرهم أن يسلم نفسه للسلطان فأبى، ولما جن الليل خرج من باب سِرْبِه[1] وهرب، ثم إن أهل إليغ لما علموا بفرار أميرهم خرجوا إلى السلطان وبايعوه ثم بعد ذلك، رجع السلطان إلى فاس سنة سبعين وستمائة وكتب لجميع الولاة باستئصال شأفة قطاع الطريق، وإقامة الحدود على الزناة وشراب الخمر[2] هـ.

وفى نزهة الحادى لما تمت البيعة له يعنى للمترجم أفاض المال على العلماء وغمرهم بجزيل العطايا وبسط جناح الشفقة على أهلها يعنى فاسا، وأظهر إحياء السنة ونشر الشريعة فحل من قلوبهم المكان الأرفع، وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة هـ الغرض.

قال فى النشر: وفى جمادى الأخيرة خرجت سكة الفلوس الجديدة المدورة، وجعل أربعة وعشرين منها فى الموزونة الرشيدية بعد أن كان فى كل موزونة ثمانية وأربعون، وبطلت الفلوس الأشقوبية المربعة، وفى يوم الاثنين ثالث رجب رجع مولانا الرشيد من حركة سوس. وفى أوائل شعبان ابتدأ بناء المدرسة التى بالشراطين من فاس المنسوبة لمولانا الرشيد بموضع دار عزوز، وفى أوائل شعبان أمر المولى الرشيد ببناء قصبة بعرصة ابن صالح وديار لمتون والدكاكين، وأعطى ألف مثقال لبناء سورها وأمر قواده ببناء الدور فيها، وأمر شراكة[3] ببناء قصبة

(١) فى المطبوع: «من باب سرّية» والسَّرب: المسلك فى خُفْيَة.

(٢) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٦٥ فى حوادث ١٠٨١هـ، ومثله فى الاستقصا ٧/ ٤٠ حوادث ١٠٨١هـ.

(٣) فى هامش المطبوع: «قال فى البستان: إن هؤلاء شراكة قدموا معه يعنى المترجم من الشرك واستخدمهم فى جنده منهم العرب الشجع وبنى عامر ومنهم من البربر مديونة=

الخميس وأعطى ألف دينار لبناء سورها، وخرج لزيارة سيدى أبى يعزى رابع رمضان ثم إلى سلا، ورجع لفاس ثامن وعشرين من رمضان[1].

وقال فى حوادث عام اثنين وثمانين: بعث المترجم خيلا للجهاد نحو طنجة أول صفر، وبعث خيلا لسوس وقائدها عبد الله أعَرَّاص وذلك يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى، وسافر لتافراطة للصيد يوم الاثنين قرب الزوال فسمع قيام ابن أخيه [بمراكش][2] فدخل فاسا يوم السبت حادى عشر رمضان وخرج من يومه عصرًا، فلقيه محبوسا بيد خدامه عند فزارة[3] فبعثه إلى تافيلالت وسافر إلى مراكش وبعث قائده زيدان لفاس يوم الأربعاء تاسع ذى القعدة ليأتى بالجيش، فأتاه أهل سوس وغيرهم طائعين ولم يبق للحركة موضع بعد أن خرجت الأخبية لوادى فاس[4] هـ.

قال أبو محمد عبد السلام بن السلطان الأعدل أبى عبد الله محمد بن عبد الله إسماعيل السلطان الأعظم فى درة السلوك، وريحانة العلماء والملوك ما لفظه: كان مولانا الرشيد يقسم أيامه بين المقام بمراكش والمقام بفاس، وكان إذا ارتحل لفاس يترك بمراكش خليفته ابن أخيه مولاى أحمد بن محرز، وإذا رجع يترك أخاه مولاى إسماعيل بالغرب.

=وبنى سنوس وأنزلهم بقرب فاس فحصل منهم الضرر لأهل المدينة وتشكوا منهم فأمرهم بالانتقال بحلتهم لبلاد صدينة وفشتالة بين النهرين سبو وورغة، وأقطعهم تلك الأرض وعزل عزابهم، وأمرهم ببناء بيوتهم بقربه، وأعطاهم ألف دينار لبناء السور، وجعلهم قبيلة واحدة حيث أنفوا من ولاية الترك وفروا إليه هـ مؤلف».

(١) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٦٦.

(٢) من نشر المثانى.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «فتراوة» ورواية نشر المثانى: «فنزارة» والمثبت رواية الاستقصا ٧/ ٤٢.

(٤) نشر المثانى فى الموسوعة ٤/ ١٥٧١، والاستقصا ٧/ ٤٢.

وكانت أيام مولانا الرشيد أيام راحة ودعة وسكون جامعة للمحاسن وأشتات الفنون، وكان محبا فى العلماء مطالعا لكتب الأقدمين فقيها متضلعا، إلا أن أيامه لم تطل وكانت مدة خلافته سبع سنين، وكان مختصا به الفقيه الأديب السيد عبد المالك التجموعتى، والفقيه الأديب السيد سعيد التلمسانى، والفقيه الأجل السيد محمد بن عبد الرحمن الفاسى، وله مع فقهاء المغرب وأدبائه أخبار حسان يطول ذكرها هـ.

ومن مفاخر المترجم شدة اعتنائه بتحقيق الشرف والنسبة للبيت النبوى حتى قال فى السر الظاهر: إنه كان مثلا مضروبا فى ذلك، وكان يسند ذلك لأهل العلم والدين، ويزجر أهل الإفك والزور فى ذلك بما يليق بهم من الزواجر البالغة، قال: وجرى فى أمرهم على طريقة ملوك الفرس، فإنها كانت تضبط أهل بيتها بضوابط أسلافها، حتى كانت تمنعهم من مناكحة من لا يليق بهم هـ.

قلت هو إشارة لتوجيه ما كان عليه المترجم وملوك آل بيته بعده من التحجير فى مناكح آل بيتهم بأن لا تكون إلا فى أبناء عمهم، أما النساء منهم فعلى سبيل الإطلاق والشمول والاستغراق من غير استثناء، وأما الرجال فكذلك إلا إذا اقتضى الحال فى بعض الخواص تسريحه له بإذن خاص، ولكن تخريج صاحب السر الظاهر ذلك على التأسى بملوك الفرس ليس على ما ينبغى، فإن اعتبار النسب فى الكفاءة فى النكاح هو القول الخامس فى المذهب حكاه ابن عرفة وغيره.

وقال الحفيد ابن رشد فى بدايته: إن قول أبى حنيفة وأصحابه إن القرشية لا تزوج إلا من القرشى ولا العربية إلا من العربى، وأن قول الثورى وأحمد: إن العربية لا تزوج من مولى، وكذا نقل ابن العربى فى الأحكام أن أبا حنيفة والشافعى يعتبر أن فى كفاءة النكاح الحسب.

ونقل ابن جزى فى قـوانينه أن أبا حنيفـة والشافعى يـعتبـران فيهـا الحسب والنسب ونبه فى البداية على أن مستند هذا القول هو الحديث الصحيح تنكح المرأة لدينها وجمالها ومالها وحسبـها، قال: فلا يخرج من الاعتبار فى الكفاءة من هذه الأوصاف المذكورة فى الحديث إلا ما أخرجه الإجماع وهو الجمال، فانظره، وعليه فلا ملام على ملوكنا الفخام. فيما اختاروه لمناكح آل بيتهم الكرام. إذ لا اتفاق فى المذاهب على خلافه وكذا خارج المذهب كما تراه.

***

علائقه السياسية

لما كان عام ستة وستين وستـمائة وألف ميلادية ورد التاجر (رولان افرجس) الفرنسى على المترجم وهو إذ ذاك بتازا يطلب منه الإذن ببناء محل للتجارة بالريف بنواحى وادى انكور، وكان قبل وصوله لصاحب التـرجمة وجه له كتابا يطلب منه الأمان والإذن له فى القـدوم لحضرته، وذكـر أن بيده كتـابا من ملك فرنسـا كلفه بتقديمه إليه، وإليك ملخص ترجمة ما كتب به:

إلى الشريف العظيم القوى مـولاى رشيد حرسه الله، لما كان سـبب مجيئى لهذه البـلاد مهما جدا ومـفيدا لدولتكم أطلب من جـلالتكم الإذن لى فى القدوم على أعتابكم وأن تسمحوا لى باللقى بكم لأتشرف بشرح أسباب مجيئى لإيالتكم، ولأسلم لكم كتابا من ملك فرنسا من مرسى البوزيم ٥ أفريل عام ١٦٦٦.

ولما اتصل هذا الرقـيم بالمتـرجم أجـابه بالإذن بالقدوم والأمـن على نفسـه وماله، وعين له ستين بعيرًا لحمل أثقاله ودونك ترجمة جوابه له:

بسم الله، من التقى المرضى عبد الله القـائم بالله المنصور بالله أمير المؤمنين الشـريف الملك بمعـونة الله مـولاى الرشيـد حـفظه الله بمنه إلى القـبطان (رولان

افرجس) تـوصلنا بكتابك طالبـا الإذن فى الدنو من حضـرتنا، فلك أن تدنو وقد أعطيناك تمام الأمان فى قضاء ما أتيت من أجله، وإذا دنوت فلا تجد بحول الله إلاّ الأمن التام والاطمئنان، والسلام على من اتبع الهـدى، كتب فى أوائل شوال عام ١٠٧٦.

ولما ورد السفير على حضرة المتـرجم اعتنى به وأكرم وفادته، ثم لما مثل بين يديه وذلك بالقصر الفـاخر المشيد بفاس فـاتح إبريل سنة ١٦٧١ أملى خطبة إليك ملخص ترجمتها:

أيها الشـريف الجليل جئت بإذن مـولاى ملك فرنسـا لأقدم لجلالـتكم فائق احتراماته وأؤكد لكم أنه راغب كـثيراً فى صداقتكم ومستعـد لقضاء ما يهمكم فى مملكته، وتصديقـا لما أقوله هأنا أسلم لجنابكم رسالة كلفنى مولاى بتسليـمها إليكم وأنتظر الجواب بما يظهـر لكم، وإنى أعد نفسى أسـعد الخلق حيث كلفنى أمـيرى بهذه المهـمة، وسـأكون أول من يحـمل إلى فرنسـا خبر هذا اللقـى الحسن الذى اقتـبلتنى به جـلالتكم، وأسأل الله أن يطيل بقـاءكم وأن يمتـعكم بدوام السـعادة ويبلغكم ما تتمنون هـ.

ثم قدم لصـاحب الترجـمة كتـاب ملك فرنسـا الذى جاء متـأبطا له وإليك فحواه: إلى الشريف العظيـم مولاى رشيد، فإن ما نسمعـه عن جلالتكم من أنها تقتبل اقتبـالا حسنا كل من تشرف بالوصول إلى أعتابكم حقق لنا سـتقبلون بفرح التاجر (رولان افرجس) الذى أوفدناه إليكم سعـيا فى ربط علائق الصداقة معكم، وقد كلفناه أن يـعرض عليكم قضـاء كل ما يخـصكم من مملكتنا وأن يكلمكم فى شأن أمـور أُخر وفى فتح باب التجـارة بين رعيتكم ورعـيتنا، وقد أذنا للتـاجرين (ميـشيل) و(رولان افرجس) أن يؤسسـوا شركة من أعيـان دولتنا فنطلب منكم أن تساعـدوهما على ذلك، وإننا مـستعـدون لإعطاء دلائل المحبة والاحـترام اللذين

نضمرهما لجلالتكم، وهذا ما نريده منكم، ونسأل الله أن يديم عزكم وأن يجعلكم سعداء أولا وآخرًا، وكتب بباريز فى ١٩ نونبر سنة ١٦٦٥هـ.

ثم إن السفير طلب من جلالة الأمير المترجم أن يأذن له يجعل شركة فرنسية بفاس بقصد التجارة فى الجلود والشمع والنحاس والصوف فلم يجبه لذلك، وبعد انتهاء حفلة الاستقبال وجه المترجم للسفير جواب كتاب أميره الذى أتى به وها نصّ ترجمته:

الحمد لله ولا غالب إلا الله المنصور بالله أمير المؤمنين المجاهد فى سبيل رب العالمين رشيد إلى عظيم النصارى لويز، السلام على من اتبع الهدى، وبعد: فقد بُلغنا كتابك وقرأناه وفهمنا ما فيه من طلبك إلا من لمن أراد من رعاياك التجارة فى بلادنا فقد أعطينا الأمان كل من أتى إلى بلادنا ومن سيأتى بقصد التجارة وفى ٢٦ شوال عام ١٠٧٦[1] كتبه كاتب عن أذنه حرسه الله بمنه[2] وأمر السفير بالرجوع من حيث أتى، ولما رأى أن حيلته بارت ومساعيه لم تنجح أخذ فى بيع ما أتى به من السلع، ثم بعد مدة حدث له شنئان مع بعض التجار قضى عليه برفع الشكوى به لحضرة المترجم فسار إليه لأجل ذلك، والحال أن المترجم كان يعتقد أن هذا السفير رجع إلى بلده وأدى مأموريته التى أتى من أجلها، ولما رآه وعلم أنه لا زال بالديار المغربية لم يبق له أدنى ريب فى أنه مفتر فيما ادعاه من

(١) فى هامش المطبوع: يوافق هذا التاريخ فاتح مای سنة ١٦٦٦.

(٢) فى هامش المطبوع: سجل أصل هذا الكتاب فى صحيفة ٢٠ من الجزء ٣ فى الوزارة الخارجية الفرنسية قال بعض مؤرخى أوروبا كان هذا الكتاب محررا باللغة العربية ولكنه لم يقع العثور على أصله ولا على ترجمته الإصبانية وإنما الموجود ترجمته من اللغة الإصبانية إلى الفرنسية وقد كان المولى الرشيد أصدره من تازا وكان مغشى بمنسوج الحرير الأزرق وتوجيهه للويز كان بواسطة الوزير كولبير هـ مؤلف».

السفارة محتال فى جر النار لقرصه فنزع منه ما كان دفعه إليه من الأجوبة، وألزمه مغادرة المملكة المغربية من حينه ولم يسمح له بملاقاة ثانية.

وقد فند الكنت دو كاسترى كون ذلك الكتاب الذى جاء متأبطا له هذا السفير صدر من ملك فرنسا للمترجم قائلا: لأن مولاى الرشيد إذ ذاك لا زال لم يظهر أمره حتى يعلم به ملكهم، وإنما كان الملك دفع لزاعم السفارة كتابا للشيخ عراس لكونه كان مشهورا مسموعا به ولما جاء التاجر رولان المذكور للديار المغربية وعلم بسلطنة مولاى الرشيد زور ذلك الكتاب ليتوصل به لغرضه.

وانظر تفنيده هذا مع ما جاء فى صحيفة ١٩٦ كتاب من ينابيع التاريخ له نفسه من رسالة لويز الرابع عشر التى كاتب بها المترجم من (سان جرمان) بتاريخ ٨ دجنبر سنة ١٦٦٦ وإليك ترجمتها:

«من الملك إلى مولاى رشيد ملك فاس الأمير المعظم الأفخم، صديقنا الأعز، لقد بعث إلينا بكتابكم التاجر رولان فرجس الذى كنا أوفدناه عليكم بقصد إنشاء محلات للتجارة بين أهل رعيتنا ورعيتكم لما فى ذلك من الفائدة للجانبين، فجاء ذلك الكتاب جوابا للرسالة التى كنا كلفناه حملها إليكم، وقد سرنا قبولكم لطلبنا بفتح أبواب المتاجر قبولا حسنا كما يستفاد ذلك من جوابكم ومما أخبرنا به هو نفسه، كما سررنا بإكرامكم لوفادته فشكرا لكم على اعتباركم لجانبنا، ونرجو أن تدوم هذه العلائق الحسنة بيننا وأن تزيد الروابط متانة بين أهل دولتنا ودولتكم، لذلك فإنا نكتب إليكم مرة أخرى طالبين منكم أن تعضدوا التاجر (فرجس) المذكور مع أخيه وشريكه (مالبنى) وأحسن برهان تبدونه على محبتكم إلينا هو إعانة الشركة المذكورة وإجابتها إلى كل طلب تقدمه إليكم. هذا ونؤكد لكم بأننا أخذنا حظًا وافرًا من فرحكم بعد انتصاركم على المرابط (الخضر غيلان) الذى كان

قام عليكم، وختـاما نسأل الله أن يحرسكم أيها الملك المـعظم الأفخم، وكتب فى قصر (سان جرمان) فى اليوم الثامن من دجنبر سنة ١٦٦٦» هـ.

ويوجد هذا الكتـاب بسجلات وزارة الأمـور الخارجيـة الفرنسوية ضـمن ما يتعلق بالمغرب من المكاتبات القنصلية وهو مسجل بصحيفة ٨٧ من الجزء الأول.

وفى سابع شتنبر ١٦٦٦ كتب الملك لويز من «فان سين» بالأمر لسفيره الذى كـان بالجزائر المسـمى (اطروبر) أن يذهب برًا أو بحـرًا إلى ملك تافلالت مـولاى رشـيد ليطلب منه الإعـانة على حـصار طنجـة التى كـانت بيد الإنجليـز، ويكون حصـاره لها برا وحصار الأسطول الفـرنسى بحرا، ولكن السفـير لم يجد سبـيلا للذهاب لمولاى رشيد انظر صحيفة ١٨٩ من الجزء الأول من ينابيع التاريخ المذكور للكنت دوكاسترى.

وكتب الملك لويز للمترجم كتابـا من باريز ٢٣ يبراير سنة ١٦٧٢ يوصيه فيه بشامويل ازو الذى كـلف بالمفاوضة فى شأن بعض الأسـارى، وإليك فحوى ذلك الكتاب:

إلى الملك الأكبر الأفـضل المقتدر حبيـبنا الأعز، لقد طبق خبـر انتصاراتكم جميع أنحـاء أوروبا، ويسرنا بهذه المناسبة أن نؤكـد لكم بأننا أخذنا حظا وافرًا من فرحكم وإننا نتمنى لكم النجاح والفلاح فى جـميع أعمالكم، هذا وبما أن ما بيننا من الصداقة وحسن المعاملة يقضى علينا أن نرأف برعايا بعضنا بعضا فلا ريب أنكم ستعـتبرون اقتـراح التاجر شمـويل دورد الذى أوفدناه عليكم ليخـاطبكم فى شأن معـاوضة الأسـارى الذين أخـذتهم السفن المعـدة لحمـاية تجارتنا بالأسـارى الذين أخذهم منا أهل سلا، وقد كلفناه أن يسلم لكم عـشرة من رعاياكم بعد أن تسلموا له مثل ذلك العدد من أهل رعـيتنا الذين قد اتخذتموهم عبيـدًا بقطركم، واعتمادًا على ما أبديتمـوه لهم من دلائل العدل كلما سنحت لكم الفـرصة فلا نشك أنكم

ستلبـون هذا الطلب، وبذلك نكون مـدينين لكم بحسن الاعـتراف، ولنا اليـقين بأنكم ستصدرون أوامركم لقوادكم ولأهل رعـيتكم بتأمين تجارنا الذين يفدون على مملكتكم حـتى لا يلقى علـيهم قـبض ولا يسـجنون، وهذا مـا نؤمله من حـسن التفـاتكم الذى يمتن علائقنا، ونطلب الله المتـعال أن يزيد فى عـزكم يا أيها الملك الهمام المعظم وأن يختم عليكم بالسعادة وكتب بعاصمة باريز فى ٢١ فبراير ١٦٧٢ حبيبك المخلص لويز.

وتحته توقيع «كولبير وزير التـجارة» هـ من صحيفة ٤١٤ من الجزء الأول من ينابيع التاريخ.

وقال مؤلفه الكنت دو كاسترى فـيما علقه على هذا المكتوب إن هذا الكتاب لم يبلغ لمولاى رشيد لأنه توفى بمراكش فى ١١ حـجة سنة ١٠٨٧ موافق ٩ إبريل سنة ١٦٧٢، ولما لم يصل هذا الكتـاب طلب فـرمون أحـد وزراء لويز من الوزير الأعظم كولبير كتابا آخر مثله لمولاى إسماعيل هـ.

وفى سنة ١٦٧٠ وجه ملك الإنجليز وهو يومـئذ كرلوس ٢ [هارى هوراس] سفيرا للمـترجم يهنئه بالانتصار ومـعه هدايا فاخرة من جملتهـا رماح طوال وستة مدافع من النحاس وعربة مزخرفة يجرها اثنا عشر فرسا وثياب.

ولما وصل السفـير إلى طنجة وجـه إلى صاحب الترجـمة بالرماح فسـر بها وأصدر أوامره لعمال القصر وتطاوين بإمداد السـفير بسائر ما يحتاج إليه من لوازم السفر الكافية لوصوله للحضرة السلطانية، وبينما السفر يتهيأ من طنجة إذ ورد عليه الأمر السلطانى بتأخير سفره نحو الخمـسة عشر يوما حيث عرض له ما أقلق راحة الرعية، وكدر صفو الأمن العام بسـببها، ورأى أنه لابد له من النهوض لحسم مادة ذلك الفساد بنفسه قبل اتساع خرقه فأجاب السفير بالسمع والطاعة.

ولما سكن المترجم هيـعة البلاد، وقطع جرثومـة العناد، وجه للسفيـر بأمره بالقدوم لحضرته، ثم بدا لصاحب الترجمـة أن يكون مجيء السفير بحرا من طنجة إلى سلا، فلم يرض بذلك واغتاظ وطلب الإذن له فى أخذ ما أتى به هدية وقدمه أمامـه لسلا والرجـوع من حيث أتى، فـساعـده المترجم على ذلـك فأخذ الهـدية وانقلب إلى وطنه.

***

بناءاته و آثاره

من ذلك مدرسـة الشراطين المتـقدمة الذكـر، وكان ابتداء الـعمل فيـها أول شعبـان عام واحد وثمانين وألف، وجـدد ما اندثر من قنطرة سبـو، وكان صدور أمره ببنائـها يوم السبت الرابع عـشر من ذى القـعدة والشروع فـيها فـى منتصف جمـادى الثانـية عام ثمـانين وألف، وجـدد القنطرة التى بخارج باب الجـديد من فاس، وقنطرة وادى فـاس، والقنطرة التى بخارج باب البـوجات من فـاس المرينية المعروفة اليوم بالقنطرة الطويلة، وقنطرة وادى النجا، وقنطرة وادى ويسلن، وقنطرة وادى أم الربيع، وآبار السلطان المشار لهـا فيما مر المعروفـة إلى الحين الحالى بآبار السلطان الواقعة بالوضع المعـروف بالشط من بلاد الظهراء، وقنطرة الرصيف داخل فـاس الإدريسيـة، وكان تجـديده لها فى شـوال، والذى فى الروضة أنهـا فى ذى القعـدة سنة ١٠٨٠، وبنى القصبـة الجديدة المارة الذكر بعـرصة أحمـد بن صالح المرينى الأندلسى وديار لمتونة بالموضع المعروف بالدكاكين، وأدار السور على الموضع المعروف بدور كرواية من جـيش السعديين حيث بنى شراكة دورهم، وقـبة ضريح جده المولى على الشريف دفين مراكش.

وفاته: توفى وهو ابن اثنتين وأربعين سنة بحضرة مراكش يوم الخمس التاسع من ذى الحجة المذكـور، وسبب وفاته أنه كان بجنان المسرة فى اليـوم المذكور لابسا

زينتــه وأراد أن يركب فرسًــا لم يركب قط ورديا فى لونه وحضــر من حضــر من أصحابه فنهاه عن ركوبه قائلا له: إنه فــرخ شرير لم يركب قط وما تعلم ما يصدر منه فأبى، وقال ما عسى أن يصدر منه! كم ركــبت من فرس جموح فغلبته وأذعن تحتى، وأمر به فأســرج وركبه داخل الرياض فما استوى عــلى ظهره حتى شرد به وجمح فمر به على عود من ليمونة به أثر قطع الحديد محرفا فدخل العود فى عنقه ما بين الودج والترقوة من الظهر فتركه معلقا به وزاد الفرس فى جموحه وشروده، وكان أمــر الله قدرا مقــدورا، وأنشأ الشعــراء فى موته على الحالة المذكــورة قطعًا وقصــائد مضمنهــا أن عود الليمــون غار عليه فــقبضــه ولم يفلته وقد رمــز لوفاته صاحب الدر السنى بقوله (فشب) ١٠٨٢ من قصيدة فقال:

وأما الرشيد بن الشريف إمامهم (فشــب) له نصــر بملك مكمل

١٠٨٢

١٤١ - راشد بن منصة الأوربى خديم آل بين الرسول المخلص مولى الإمام الأكبر رحمه الله ورضى عنه.

حاله: صــرح غير واحــد من ثقات المؤرخــين ومحقــقيهم بــأنه كان له إلمام بالعلوم ومعرفة تامة بــالسياسة والأخبار وأيام العرب ووقائعهــا والفروسية والرماية ومكايد الحــرب، ذا قوة وحــزم ونجــدة وإقدام ودهاء ونبــاهة ودين مــتين، وثبــات ورسوخ وأمــانة، وصلاح وورع وزهد وتقى وإخلاص حب ونصيــحة فى آل بيت الرسول، يوالى بموالاتهم ويعادى بمعاداتهم، وكفاه فخرا وشرفا أنه من أهل القرون الثلاثــة المشهود لــهم بالفضل على لســان من لا ينطق عن الهوى، ومــا أبداه من صدق الولاء والقيام بســائر الشئون والخدمات اللازمة لجناب بضعــة الرسول الغضة الطرية شمس اليــمن والفلاح المشرقة بالــديار المغربية، مولانا إدريس بن عــبد الله الكامل، وبذل نفســه النفيسة ابتــغاء مرضاته، خرج مــعه خديما ودليــلا وحارسا

ومعززا ونديـما، ولم يزل تحت أوامره يصافـيه ويصطفيه ظعنا وإقـامة إلى أن نقله الله إليه شهيدا.

وبالغ جهده وطاقـته فى الأخذ بثأره من المارق الممقوت اللعـين سليمان بن جرير المعـروف بالشمـاخ، فاقـتفى أثره إلى أن لحقـه بوادى ملوية فضـربه بسيـفه ضربات قطع بإحداهن يده وأثخنـه بالباقى جراحا، ومع ذلك عبر الوادى فـأعجز المترجم لحاقه فرجع وجهز مـولانا إدريس ودفنه، ثم ألح القوم عليه بالقيام بأمرهم كمـا كان مـولاه من قبله إلى أن تضـع جاريته كـنزة حملهـا، فإن وضعـت ذكرا بايعـوه، وإن وضعت أنثى لم يعـدلوا عنه، لأنه أحقّ بالإمـامة من غـيره لعلمـه وفضله ودينه وشهامته ونصحه لملة الإسلام.

فقـام بالأمر أحـسن قيـام، وجعل فى حكمـه بينهم الكتاب والسـنة إمام، وحفظ حرمـة مولانا إدريس فى أهله وولده من بعده حملا ورضـيعا إلى أن شب على هدى سلفه فى صيانة وعفـاف، وتحلى بأشرف الأوصاف، وتجلى على منصة الجلال والكمال، حفظ القرآن وهو ابن ثمانية أعـوام وتفهمه وتعلم السنة والسياسة وحفظ أشعار العرب واستطـلع على سياستها وأمثالها وحكمهـا ووقائعها وحروبها ودربه على الرماية بالسهام وركوب الخـيل وخدع الحرب والمكر والفر، ولما بلغ من السن إحدى عشرة سنة أخذ له البيعة العامة على المنشط والمكره من سائر القبائل.

وأصل راشد هذا قيل من المغرب وبه نشأ أوربى من القبيلة الشهيرة وهو ابن منصة، سبى مع أبيـه فى غزوة موسى بن نصير، وقفل مـعه إلى المشرق، وقيل: من المولدين، وقيل: من العرب من موالى العـلويين، وقيل: غير ذلك والله أعلم بحقـيقة الأمـر، وأيا كان فله يد بيضـاء فى الإسلام وفضل لا ينكر، وأثيل مـجد يجب أن يذكر به ما طلع نجم ويشكر.

وفاتـه: توفى رحمـه الله شهـيدا سنة ست وثمـانين ومائة بإغـراء من ابن الأغلب عليه، ودفن قريبا من ضريح مولانا إدريس فى الجهة الجنوبية يمين الخارج للمزارة العليا من المسـجد الأعظم هناك وضريحه ثم مزارة شهيـرة تفد إليها الزوار من كل صوب وصقع، حتى إن زوار الضريح الإدريسى وخصوصا الأمراء والملوك يبدءون بزيارة المترجم ثم ينقلبون لزيارة الضريح الإدريسى رضى الله عنهما.

١٤٢ - رحمـة بنت الجنان زوجة أبى عبد اللـه محمد بن عـزوز الصنهاجى المعروف بالحاج عزوز، آتى الترجمة فى حرف الميم.

حالها: كانت حافظة لأحاديث كثـيرة من الصحاح، وكادت أن تحيط حفظا بالأدعية الواردة فى الصحاح، وكـانت ملازمة لدرس القرآن العظيم فى المصحف، عالمة بكثير من تفسير قصصه وأخـباره، وتزوجت بعد وفاته بأحمد بن محمد والد الإمام ابن غـازى، ورزقت[1] الإمام مـحمـد بن غازى صـاحب الروض الهـتون وغيره المترجم فيما يأتى:

مشيختها: أخذت عن زوجها المذكور.

الآخذون عنهـا: منهم الإمام ابن غازى، قال: حـفظت منها كثـيرا من أيام الصغر فلم أتعب كثيرا فى حفظه فى الكبـر وقال فنفعتنا بذلك فى الصغر غاية برد الله ضريحها.

١٤٣ - روان المدعو أبا الروائن ابن محمد بو مـدين بن عبد السلام بن على ابن الولى سـيدى عـيسى بن الشـيخ محـمد بن عـيسى بن عـامر دفـين مكناس.

حاله: قال الزبادى فى سلوك الطريق لدى تعداده لشـيوخه الذين أخذ عنهم

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «ورقت»..

الطريق العيساوية فى حق المترجم: الفقير المسن الصالح المتمسك الناسك، أخذنا عنه ورد سيدى بن عيسى لقيناه فى غرفة داره ببراكة من مكناسة الزيتون بعد امتناعه من ذلك.

وفاته: توفى عام الزلازل سنة تسع وستين ومائة وألف.

* * *